مجلة دراسات في سيكولوجية الانحراف
مجلة دولية نصف سنوية : ISSN :2602- 554X EISSN :2773-2568
المجلد : 07 العدد : 01 السنة : 2022 ص- ص : 231 - 244

إشكالية المراهقة، بين التقمصات والمرور إلى الفعل

The Problem of adolescence between identification and acting out

د. محند سمير *
جامعة 20 أوت 1955 سكيكدة. الجزائر
mohand@univ-skikda.dz

تاريخ الاستلام:2022/02/02 تاريخ القبول :2022/4/03

ملخص: تعد المراهقة أحد المراحل الحاسمة في حياة الفرد، تتميز بالهشاشة تبعا للتغيرات النفسية والفيزيولوجية التي تميزها، ما يجعل المراهق أمام عمل نفسي لإرصان تلك التغيرات ضمن حياته النفسية، وهذا يتوقف على نوعية التقمصات التي قام ببنائها في مراحل باكرة من بناء شخصيته، غير أن الفشل في هذا العمل يؤدي الى البحث عن سلوكات التفريغ وأحد تلك السلوكات هي المرور الى الفعل، أين قمنا في هذه الورقة البحثية بالتركيز على الإدمان على المخدرات كأنموذج، وتم هذا العمل بسلك المنهج العيادي واستعمال المقابلة العيادية واختبار تفهم الموضوع مع خمس حالات، وخلصنا في النهاية الى أن المراهقين المدمنين على المخدرات يتميزون بهشاشة على مستوى التقمصات، واستخدام دفاعات نفسية صلبة، ويتميز البروفيل النفسي لديهم بصعوبات على المستوى النرجسي والعلائقي، وشخصية غير ناضجة.

الكلمات المفتاحية: المراهقة؛ التقمص؛ المرور الى الفعل.

Abstract: Adolescence is one of the critical stages in an individual's life. It characterized by vulnerability due to the psychological and physiological changes that characterize it, forcing the adolescent to integrate these changes into his psychological life. It all depends on the type of identification which built in their childhood. But the failure of this work is manifested by acting out. Where in this research we focused on drug addiction as a type. This work was done by clinical method, clinical interview and TAT with five cases. We concluded that adolescent drug addicts are characterized by frailty at the level of identifications, and the use of rigid psychological defenses. Then, their psychological profile is characterized by difficulties at the narcissistic and relational level, and an immature personality.

Keywords : Adolescence, Identification, Acting out.

* المؤلف المرسل

مقدمة:

تعد المراهقة إحدى المراحل الحاسمة والأكثر هشاشة في حياة الفرد، انها سيرورة انتقالية من الطفولة بكل ما تحمله من حالات اعتماد، ضعف واستناد على الآخر، الى مرحلة جديدة من الاستقلالية والقوة، ثمة اذن مرحلة المراهقة التي نهتم بدراستها، والتي تتميز بظهور تحولات البلوغ وما تحمله من تغيرات على مستويات مختلفة من النمو: النفسية، العلائقية والجسدية، أين يجد المراهق نفسه أمام واقع جديد ومحاولات لإدماج والتعامل مع هذا الواقع، وضرورة ارضانه ضمن معاشه النفسي، هذا ما جعل علماء النفس يتكلمون عن فترة المراهقة باهتمام، فظهرت تناولات مختلفة تنظر اليها كسيرورة نمو وانتقال، أخرى تراها مرحلة أزمة تبعا للصراعات المميزة لها والقدرات الجديدة المطلوب التحكم فيها ضمن عملية توازن متدرج مع الواقع.

حيث يكتب Gutton أن المراهقة سيرورة نفسية تجعل من المراهق تحت ضغط التغيرات النفسية والفيزيولوجية الناتجة عن البلوغ، لذلك فهو مجبر على إعادة بناء ذاته رغبة في البلوغ والبحث عن رموز جديدة للهوية (Gutton , 2002, p55) في حين يرى Jeammet بأن المراهقة مرحلة هامة تفرض على الفرد تغيرات على مستوى التوازن بين العالم الداخلي والعالم الخارجي، أين يعيد تنظيم التوازن بين النرجسية، العلاقة مع الموضوع الارتباط والاستقلالية، هذا العمل النفسي الشاق من شأنه أن يؤدي إلى هشاشة العالم الداخلي، كما أن العلاقة مع العالم الخارجي تتغير في هذه المرحلة. (Jeammet, 2001, p1) أما Kestemberg فتنظر إلى المراهقة في مقالها الهوية والتقمصات لدى المراهقين، باعتبارها منظم نفسي organisateur psychique يتم من خلالها إعادة تنظيم الأنا الذي يعيش تغيرات البلوغ، مما يجعل من المراهق أمام مهمة استدخال هذا النمو الفيزيولوجي ضمن نظامه العلائقي والليبيدي في مواجهة خطر انكسار التوازن بين استثماراته النرجسية والموضوعية. (Kestemberg, 1999, p47)

ومن هنا يتضح أن المراهقة كإشكالية مهمة من إشكاليات النمو تتميز بعمل نفسي كبير يقع على المراهق القيام به على مستوى عميق من شخصيته، انها تلامس إشكالية الهوية لديه، ذلك السؤال الجوهري الذي يجيب عن سؤال من انا، ماذا أريد والى اين اتجه، فالمراهق في مرحلة سابقة من الطفولة كان في وضعية اعتماد، يحدد الوالدين ما يقوم به وما يريده ومن يكون ففي النهاية تحدد صورة الطفل في خطاب الأم وفي عينها، غير أن مرحلة المراهقة تتجه نحو عيش تجارب جديدة واستدخال نماذج أخرى خارج الاسرة تجعل الفرد يتجه نحو بناء هوية بطريقة اكثر استقلالية، هذا العمل سوف ينعكس على التنظيم الداخلي في محاولة لبناء توازن بين العلاقات التي بناءها سابقا

ضمن الطفولة، ومتطلبات المرحلة التي تتسم بالبحث عن الاستقلالية، والتخلي عن روابط سابقة وبناء علاقات جديدة ضمن شروط جديدة، كل هذا له تأثير على مدى مرونة أو هشاشة الشخصية في هذه الفترة التي تتسم بالعنف سواء اتجاه الآخر أو الذات فيما يظهر من خلال سلوكات اكتئابية واستثمارات نرجسية نحو الذات، وهذا يقودنا للحديث عن صورة الجسد التي تكتسي أيضا قيمة في هذه المرحلة لما تحمله من تغيرات فيزيولوجية ونضج عضوي يقع على المراهق مهمة ادماجه وتقبله ضمن حياته النفسية.

إن هذا العمل النفسي والإرصان الجيد لهذه السيرورة النفسية يتوقف على نوعية العلاقات مع المواضيع البدائية والتقمصات التي تم استدخالها، لذلك فإن نجاح المراهق في هذا المسار يتوقف على نوعية التقمصات التي يحملها وقدرته على إرصان مواضيعه البدائية، فالتقمصات هي عملية بناء الشخصية وفقا لسمات وخصائص الآخر، انها عملية تعويض ناتجة عن فقدان موضوع كان يستثمره الأنا، هذا الفقدان يمثل الدافع إدماج صفة من صفات الموضوع المفقود بالأنا ضمن سيرورة نفسية لاشعورية مستمرة.

هذه السيرورة تظهر فيما بعد في المراهقة حيث يكون على المراهق نزع استثماراته من المواضيع الوالدية، ليبحث عن مواضيع خارجية، ولنوعية التقمصات في هذه المرحلة دور أساسي في تقوية الأنا لمواجهة مختلف الصراعات التي قد يتعرض لها الفرد طوال حياته، وكلما كانت التقمصات جيدة كلما نجح الفرد في إرصان تغيرات سيرورة المراهقة، وعلى النقيض فان "هشاشة التقمصات قد يؤدي بالمراهق إلى البحث عن سلوكات التفريغ" (Marty. Chagnon, 2006, p8) ومن بين سلوكات التفريغ الأكثر ظهورا فترة المراهقة سلوك المرور إلى الفعل le passage à l'acte الذي يعد مخرج عنيف يحققه التوظيف النفسي الذي تنعدم لديه وسائل التحرر وإرصان صراعاته الداخلية، كما يمكن اعتباره هروب من علاقة غير محتملة، حيث يؤكد Jeammet أن التعمق في دراسة المرور إلى الفعل يوضح ظهور الفعل مكان العمل النفسي المتمثل في التصورات التي تساهم في إرساء تنظيم متوازن. (Jeammet, 2002, p65)

وتتجلى سلوكات المرور إلى الفعل من خلال السلوك الاندفاعي كقوة انفجارية لدى الفرد، التي تصف الطبيعة التلقائية للفعل تحت أثر الاندفاع، من خلال اللجوء ارتكاب أفعال دون التفكير في عواقبها، اذ كثيرا ما "يعبر المراهق عن مشكلاته وصراعاته عن طريق سلوكات المرور إلى الفعل مثل الإجرام، اضطرابات التغذية، ومحاولات الانتحار والإدمان". (Jeammet, 2002, p66)

نهتم في هذه الورقة البحثية بسلوك الإدمان Addiction الذي يعد محاولة لطلب السند والمساعدة، يبحث عنها الفرد في المادة الإدمانية، ليعيش الشعور باللذة والحنان الذي يمثله اللقاء مع موضوع الحب الأولي، فهذه السلوكات تعتبر تعويضية، فاللجوء الى المادة المخدرة لا يكون من أجل المادة في حد ذاتها، وإنما للخبرات السارة التي يعيشها من خلالها، حيث يرى Mercelli et Braconnier 2011 أن الإدمان يعتبر كحماية للأنا الذي يتميز بالهشاشة والمُهدد في كماليته، وهو ما أوضحته دراسات مثل Saouane 2010 أن الإدمان يعتبر حل لاشكالية علائقية حيث يعد المادة المخدرة موضوع انتقالي، في حين بينت دراسة Fredman & Musgrove 1994 أن الإدمان لدى المراهق يعبر عن هشاشة الروابط الاسرية، ودراسة Charbi 2012؛ التي بينت أن المدمنين لهم معاش النفسي متدهور، ودراسة Kharchi 2009؛ التي خلصت إلى أن الأسر التي يُظهر خلالها المراهق سلوكات مرور إلى الفعل، هي أسر تؤدي وظائفها على نحو سيء، والعرض المطور من طرف المراهق له دور في التعبير عن الأزمة التي تمر بها الأسرة.

من هنا ارتأينا القيام بهذا البحث العلمي لتناول إشكالية المراهقة من خلال التركيز على التقمصات التي تعتبر لبنة مهمة في بناء الشخصية من خلال العلاقة مع الآخر، تنطلق منذ الطفولة وتنضج أكثر خلال المراهقة، وأيضا جانب سلوكات المرور الى الفعل من خلال التركيز على الإدمان على المخدرات كأحد تلك السلوكات الأكثر انتشارا لدى المراهق، وفي سبيل ذلك ننطلق من سؤال بحث ينص على:

- ما مميزات الحياة النفسية للمراهق المدمن على محور التقمصات؟
- ما مميزات البروفيل النفسي للمراهق المدمن؟

وكإجابة عن هذه الأسئلة نقترح الفرضيات التالية:

- تتميز الحياة النفسية للمرهق المدمن بظهور تقمصات نفسية هشة؛
- يتميز البروفيل النفسي للمراهق المدمن بوجود صعوبات على المستوى النرجسي والعلائقي.

1. أدبيات الموضوع:

1 . 1 . المراهقة:

تعتبر المراهقة مفهوما جد معقد، فهي مرحلة مرور période de passage من حالة الطفولة إلى الرشد، وفترة نمو طبيعي يقرّب الطفل من الراشد في الجانب الجسدي، امام فرصة إدماج الجانب الاجتماعي في نظامه الداخلي، تلك التغيرات تثير اختلال في توازن شخصية المراهق تظهر من خلال

مجموعة من الأعراض التي تتجمع تحت تعبير أزمة المراهقة، أين يجد نفسه في مهمة اكتساب هويته الشخصية بطابع أكثر أصالة. (Pierr, G. Cosline, 2010, p14)

يرتبط تطور المراهق بالمفهوم الذي يصبغه المجتمع على المراهقة، حيث لكل مجتمع خصوصيات وميزات تنعكس على المراهق، بما في ذلك اختلاف تحديد المرحلة العمرية للمراهقة، وطريقة مواجهتها، والفرق الموجود بين مراهق وآخر، بين ثقافة وأخرى، يظهر في شدة الأزمة وفي الأشكال التي تتخذها والحلول التي تعطى لها، فالمراهقة لها طابع خاص يتعلق بالبيئة والوسط الاجتماعي الذي يحتضنها. (Reymond-Rivier. B, 2002, p119)

اذن فهذه المرحلة تهدف إلى التكيف مع النمو المحقق والتوافق مع الحياة الجديدة، بعد مرحلة طفولة تميزت بالاعتمادية على المواضيع الأولى، ليجد الفرد نفسه أمام استقلالية أكبر، ويعبر التطور العلائقي الذي يطبعها عن اختلال مؤقت يتم تعديله من خلال ميكانيزمات محددة (Cahn, 1998, p10) والتغيرات التي تطرأ في هذه المرحلة على مستوى التوازن بين العالم النفسي الداخلي والعالم الخارجي العلائقي، من شأنها أن تؤدي إلى هشاشة على المستوى النفسي (Jeammet, 2001, p1)، وأهم ما يميز هذه المرحلة هو العنف الموجه نحو الذات أو نحو الآخر.

في هذه المرحلة الهامة من الحياة يظهر صراع المراهق مع الجيل السابق له، من خلال التغيرات والأسلوب الجديد الذي يسلكه، يظهر فيها ميل نحو التحرر من قيود الآخر والتمرد على نماذج السلطة في حياته، وتخريب ذاتي لتحقيق هوية مستقلة، فمتطلبات هذه المرحلة تتميز عن الطفولة، من أجل أن يحقق تواجده ككائن متفرد ومستقل، فالمراهق يأخذ مسافة عن والديه من أجل أن يحس نفسه أكثر استقلالية، فهو يبحث عن الابتعاد بنفسه ليجد نفسه مع حاجاته الحميمية لوحده، ويرفض في والديه دورهم في وضع قوانين وممنوعات وحدود لحرمانه من تحقيق رغباته، هو أيضا يتجه نحو اكتشاف ما هي قدراته وما هي حدوده، إنه يبحث عن تجارب جديدة.

وترى Ana Freud أنه من الطبيعي أن تشهد العلاقة بين المراهق ووالديه بعض الصراعات حيث تدل تلك التصرفات التي يمكن اعتبارها غير سوية في مرحلة أخرى على الصعوبات التي يواجهها المراهق في سبيل تجاوز المرحلة (سميرنوف، 1985، ص218) ولذلك فهم في حاجة مساعدة وتقبل الوالدين من اجل الوصول الى تحقيق الاستقلالية

ويرجع مآل الفرد في السواء والاضطراب الى مرحلة الطفولة والبناءات التي تم تحقيقها خلالها، يمكن ان نشير هنا الى أنماط التعلق وخبرات الانفصال التي يعاد إحياءها خلال المراهقة، وأولئك الذيم حضوا بوالدين متسامحين ومتفهمين سوف يتمكنون من تجاوزونها بهدوء، لذلك يمكن القول ان

خصوصية ومتطلبات مرحلة المراهقة والتغيرات بالإضافة الى التغيرات العميقة التي تمد الحياة النفسية والعلائقية للمراهق تجعله في وضعية هشاشة يمكن ان تنفجر خلالها اضطرابات المرور الى الفعل.

1 . 2 . التقمصات:

يعد مفهوم التقمصات أحد المفاهيم المهمة في نظرية التحليل النفسي، وأحد الميكانيزمات الدفاعية التي يستعملها الأنا في مهمة حفظ توازن الجهاز النفسي، وقد نال هذا المفهوم اهتمام فرويد في مختلف كتاباته التحليلية، والتقمصات كسيرورة نفسية عميقة تسمح ببناء شخصية الفرد عن طريق استدخال صور مواضيع الحب الأولية وعلاقاته التفاعلية معها، ومدى مرونة تلك التقمصات هوما يحدد مآل ومستقبل تكيف الفرد مع الواقع النفسي، ثم ليمنحه موارد يستعملها في تفاعلاته مع العالم الخارجي الموضوعي.

والتقمص: "عملية نفسية يتمثل الشخص بواسطتها أحد مظاهر، خصائص أو صفات شخص آخر، ويتحول كليا أو جزئيا تبعا لنموذجه." (لابلانش، بونتاليس، 2002، ص198)

وهو الظاهرة الأولى لتعلق وجداني بشخص آخر، ويلعب دورا هاما في عقدة أوديب" (فرويد، 2006، ص79) حيث يتكون الأنا في الأغلب من التقمصات التي تتم إزاء المواضيع الاولية" (فرويد، 1982، ص78) فالأنا كما تناوله فرويد في كتاباته نابع أولا وأخيرا من التقمصات التي كونها، والتي تصبح فيما بعد الوصل بين الذات والعالم الخارجي، والانسجام الذي يحصل ما بين العديد من هذه التقمصات هو الذي يؤدي إلى السلامة النفسية للأسوياء، وتضاربها يؤدي إلى الصراع والعصاب.

فنحن نتقمص الأشخاص الذين نحبهم والذين نكون قريبين منهم، ونلجأ إلى ميكانيزم التقمص لمساعدتنا على تسوية انفصالنا عن مواضيع الحب، وفي هذه السيرورة وظيفة تشكيل بنية مهمة للنمو. (Joseph Sandler, 1987, p197) إذ أن ما يميز التقمص هو التعلق العاطفي بموضوع الحب، ثم محاولة الحصول عليه من خلال دمجه في الذات كي يصبح مثله.

ويقابل مفهوم التقمص التحليلي مفهوم مرحلة المرآة الذي صاغه جاك لاكان Lacan، أين يرى بان الفرد يولد في حالة جسدية غير ناضجة وصورة جسده مبعثر، تتميز رغباته البدائية بحالة من الفوضى، ومن خلال صورة شخص آخر يلمح الطفل إشارة تكامل جسده ويحصل على أولى قدر من التحكم في حركته، أين تصبح مرحلة المرآة موحدة للجسد الممزق. (نيفين زيور،2000، ص109)

فيما تكلم وينيكوت Winnicott عن مفهوم الأم المرآة La mère miroir، أين يرى بأن ردود فعل الأم تجاه الاثارات المؤقتة للطفل تعد بمثابة دليل على وجوده، فهي تسمح له بأن يحس ويشعر

بالوجود كجزء منها، فالأم هي وظيفة مرآتية Une fonction de miroir، وهذا يشير إلى التقمص الأولي، والعناية والاهتمام الامومي تجربة ذاتية شاملة تعطي للطفل الإحساس بالثقة الضرورية لبناء شخصيته واستقلاليته.

1 . 3 . المرور الى الفعل والادمان:

تتعدد سلوكات المرور الى الفعل الى أنماط مختلفة من السلوكات، يشترك الافراد الذين يلجؤون اليها في كونهم يعبرون على الصعوبات والصراعات التي يعيشونها من خلال اللجوء الى الفعل بدل الكلمة، وسيطرة الانفعال بدل بناء التصورات، والى الاندفاع بدل التروي، فهؤلاء يعيشون جملة من الصعوبات على المستوى النفسي الداخلي، يمثل الفعل خلالها تعبير واضح وصريح عن تلك المشاكل.

ويعرف المرور إلى الفعل Le passage à l'acte من خلال مفهوم التفعيل Acting out، ويستخدم للدلالة على الأفعال التي تتخذ في الأغلب طابعا اندفاعيا، كما أنها تتخذ شكل عدوانية موجهة نحو الذات أو نحو الآخر. (لابلانش، بونتاليس، 2002، ص187) اذ تحتل العدوانية مركز المرور إلى الفعل، لأنه ينتج عن عدم القدرة على تحمل الشدة اللازمة لاحترام مبدأ الواقع (Balier, 1995, p41) تبعا لسيطرة العاطفة، لذلك يرى Marcelli بأن الإدمان على المخدرات يسجل ضمن الشخصيات ذات التنظيم الحدي. (Mercelli, Braconnier, 2004, p96)

فالمرور إلى الفعل هو التفاعل مع الذات أو مع الاخر من خلال الفعل وليس باستعمال الكلمات في موقف ليس في حاجة الى الدفاع بالفعل، حتى ولو استعمل الكلام فيكون خالي من المعنى، ينطوي على صعوبات على مستوى سيولة التصورات واستمراريتها، وضعف في ارصان القلق.

ويشير المرور إلى الفعل إلى فقر على مستوى الارصان النفسي L'élaboration psychique أي صعوبات في التحكم في الإستثارات النفسية التي يواجها الجهاز النفسي بطرق سوية ومألوفة، مما يؤدي به إلى المرور إلى الفعل، كما يلتقي مع مفهوم الالكستيميا L'alexithymie الذي يعد حالة نفسية تتميز بصعوبات التعبير اللفظي عن المشاعر وفهمها، وعدم القدرة على تنمية نشاطات الترميز، وصعوبة في التخرج من الإستثارات الوجدانية ووضعيات الضغط، مع جفاف في الجانب العلائقي.

ويعد سلوك الإدمان على المخدرات أحد نماذج المرور إلى الفعل، كجزء من اضطراب لا يعبر عن أي سيرورة إبداعية. (Frédéric Millaud, 1998, p17)

وللحديث عن ايثيولوجيا الإدمان نركز على مرحلة المرآة Stade du Miroir التي قام Lacan بالتنظير لها، والتي تسمح للطفل باكتشاف استقلاليته عن الأم ككائن مستقل ومنفصل له وجوده

المنفرد، وتساعده على بناء أولى التقمصات وتشكيل هويته الخاصة، ولكن عند حدوث مشكل في تحقيق هذه المرحلة يبقى الفرد ضمن علاقة ثنائية مع الأم، وهو ما يجعله في حاجة دائمة إلى علاقة اعتمادية خلال حياته، عندها يشكل الإدمان على المواد المخدرة بديل للاعتماد على الأم.

فحسب Olievenstein فالإدمان هو انزلاق في مرحلة نشأة التقمصات خلال مرحلة المرآة، ولتفسير ذلك يستخدم استعارة المرآة المكسورة Stade de miroir brisé، أين يكتسب الطفل صورة مكسورة وغير كاملة عن ذاته، يشير إليها باعتبارها انكسار نرجسي Narcissisme brisé. (janine, 1993, p5)

عندها يكون السلوك الإدماني محاولة لطلب السند والمساعدة، يبحث عنها الفرد في المادة الإدمانية، ليعيش الشعور باللذة والحنان الذي يمثله اللقاء مع موضوع الحب الأولي، كسلوك تعويضي، فاللجوء الى المادة لا يكون من أجل المادة في حد ذاتها، وإنما للخبرات السارة التي يعيشها من خلالها.

ويعتبر الإدمان كحماية للأنا الذي يتميز بالهشاشة والمُهدد في كماليته (Mercelli, Braconnier, 2011, p404) وله علاقة بالقدرة على إرصان تقمصات مستقرة وإرصان الانفصال عن المواضيع الأولى ضمن عمل حداد، وتكرار تلك التجربة يهدف لملأ الإحساس بالفراغ الذي يعيشه، ويهدف حسب Jeammet للبحث عن مضمون خارجي من أجل تحقيق توازن لم يجده في عالمه الداخلي. (Jeammet, 2006, p60)

من هنا يظهر أن الإدمان على المخدرات يعد أحد سلوكات المرور إلى الفعل، ينطوي عن صعوبات في استعمال الموارد النفسية بنجاح، لذا يلجأ إليه الفرد الذي يعاني من صعوبات في ارصان الصراع والقلق الذي يواجهه في حياته، هذا الحل المتضارب لإشكاليات نفسية يترجم من خلال صعوبات علائقية.

2. المنهجية:

2 . 1 . منهج البحث

يمثل البحث العلمي مغامرة علمية مليئة بالمستجدات، وخوضها لا يكون صدفة بل يخضع لشروط ويسلك منهجا يتميز بالموضوعية والدقة، اذ على الباحث أن يعتمد أسلوب علمي مدروس، فالمعلومات التي يتوصل إليها لا تكون دقيقة، واكتشافاته لا تكون مضبوطة إلا بقدر ما تكون طريقته علمية ومنهجية.

تم استخدام المنهج العيادي الملائم لهذا البحث، والذي يسمح بالوقوف على الواقع النفسي للفرد من خلال دينامية الاليات الدفاعية والجانب العلائقي مع نفسه ومع الآخر، ويمكّننا من معرفة التوظيف النفسي للفرد، ورسم صورة واضحة للأحداث والظواهر التي تصدر عن الفرد. (Perron, 1997, p37)

2 . 2 . وسائل البحث:

اعتمد هذا البحث على استراتيجية دراسة الحالة واستخدم وسيلتين مهمتين من وسائل المنهج العيادي، هما المقابلة العيادية واختبار تفهم الموضوع TAT، حيث تمثل المقابلة العيادية "علاقة حوارية دينامية بين الفاحص والمفحوص تهدف لإبراز ديناميات سلوك الفرد وتمكننا من فهم العوامل النفسية التي أدت الى الحالة الراهنة". (Chiland, 1983, p10) والمقابلة مع المراهق تمثل فرصة لإظهار عالمه الداخلي لشخص راشد ليس له علاقة بالصور الوالدية، دون ان يكون في موضع الحكم عليه. (Marcelli. D, 1999, p9) وقد ركزنا في المقابلة العيادية على محاور تلامس الحياة النفسية للمراهق ثم الحياة العلائقية مع الآخر (الام، الاب، الرفقاء، الجنس الآخر) والعلاقة مع المادة الإدمانية ثم التصورات المستقبلية.

فيما يمثل اختبار تفهم الموضوع أحد أهم التقنيات الإسقاطية التي تسمح بفهم الحياة النفسية للفرد من خلال دينامية الاسقاط، ويندرج الإنتاج الاسقاطي للفرد من خلال هذا الاختبار ضمن محورين اثنين، محور نرجسي يهتم باستثمار تصورات الأنا، التقمصات ومدى استقرار الهوية، ومحور موضوعي يركز على استثمار التصورات العلائقية، والعلاقات البينشخصية. (Berlet, Chabert, 2003, p38-42) وتم استخدام شبكة التنقيط للباحثة Chabert 2003 ثم محاولة التأكد من مدى مرونة أو هشاشة التقمصات.

2 . 3 . مجموعة البحث:

تم القيام بهذا البحث مع خمس حالات مراهقين مدمنين على المخدرات، تم تشخيص ادمانهم من خلال رأي طبي متخصص، والتحقق من ذلك اعتمادا على المعايير المحددة للاعتماد حسب DSM5.

3. النتائج:

إن دراسة الحالات عن طريق المقابلة العيادية نصف الموجهة بينت مجموعة من الخصائص التي تميز الحياة النفسية لهؤلاء، نلخصها فيما يلي:

- **صعوبات علائقية**: أظهرت الحالات التي تمت دراستها صعوبات على المستوى العلائقي، أين اتجهوا نحو سلوك الكف والانعزال والبقاء وحيدا، وعلاقات اجتماعية منحصرة جدا، حتى أن العلاقات

التي يبنيها المفحوص مع جماعة الرفاق هي علاقة نفعية تدور حول المادة المخدرة، يغيب عنها الارتباط الوجداني، ويسودها سلوكات المرور إلى الفعل، والادمان والعنف كأهم تلك السلوكات.

- **علاقة ذات نمط سندي**: ظهر النمط السندي في حياة الحالات، فكانت استجابات المفحوص تتميز بالكف والقلق، وتحمل في مضمونها فقدان الموضوع، وتجنب أخذ المبادرة.
- **علاقة مضطربة مع الوالدين (نسق أسري مضطرب)**: بالرجوع إلى الطفولة ظهر لدى الحالات، صراع مع الصورة الأمومية، حيث لم توفر الأم الاحتواء للطفل مما يساعده على مواجهة العالم الخارجي بشكل مستقر فيما بعد، ففقدان علاقة السند في الطفولة يجعل أسس شخصيتهم جد هشة في مواجهة متطلبات البلوغ، فيصبحون مراهقين عرضة للبحث عن موضوع اعتماد خارجي بديل، وعلى الجانب الاخر فان الاعتمادية الزائدة تجعل المراهق يواجه صعوبة في التواجد ككيان مستقل بدون موضوع اعتماد، فيما كانت العلاقة مع الأب صراعية فهو لم يُستثمر كهيئة لأنا أعلى يمثل القوة والسلطة والقوانين.

صعوبة تجاوز الاستمارات الأولية: ظهر لدى بعض الحالات استثمار للصورة الأمومية كموضوع حب أولي، مع صعوبة التوجه نحو استثمار مواضيع حب خارجية جديدة، فالمراهق لازال يواجه صعوبة في التوجه نحو بناء علاقة مع الجنس الآخر، في حين ظهر لدى آخرين أن استثمار العلاقة مع الجنس الاخر بحثا عن الاحتواء، الحنان والقبول كأحد أوجه علاقة أم ـ طفل.

- **تصورات مستقبلية فقيرة:** جاءت التصورات المستقبلية فقيرة، في غياب أي عمل حداد حول المادة المخدرة، فيما لاحظنا لدى حالات أخرى رغبة في الهجرة وتغيير مكان العيش كسلوك للبحث عن الهدوء في العالم الخارجي وليس في الداخل.

من خلال قراءة وتحليل بروتوكول اختبار تفهم الموضوع للحالات، وتفسير النتائج المحصل عليها تبين:

- **سيطرة سياقات الكف:** في كل الحالات لاحظنا استعمال مكثف لسياقات الكف، أين ظهر الخطاب القصصي فقير، متقطعا ويميل نحو التقصير والاختصار، في حضور شخصيات غير معرفة من حيث تحديد الجيل وأحيانا الجنس، مما أضفى طابعا ضبابيا عليها، ضف إلى ذلك تجنب إقامة علاقات بينشخصية بين شخصيات اللوحات، مما يدل على وجود هشاشة علائقية لدى المفحوص.

- **دفاعات نفسية صلبة:** أظهر كل المفحوصين استعمال صلب للدفاعات النفسية، ترجمت من خلال التركيز على سياقات التجنب، كدفاع أمام إشكاليات اللوحات وتجنبا للطابع الصراعي الذي تحركه المادة الإسقاطية، وكذا سياقات الرقابة أين حاول المفحوص أن يضع حاجز أمام التفكير الحر فلجأ إلى سياقات هجاسية تتضمن الشك والتردد، وأيضا التمسك بالمحتوى الظاهري، تجنبا للصدى الهوامي والوجداني الذي تحمله إشكاليات اللوحات، وحضور ضئيل جدا لسياقات المرونة والسياقات الأولية، أين فشل المفحوص في التخرج من إشكالية الرائز الاسقاطي.
- **حضور السياقات النرجسية والسندية:** حمل الإنتاج الاسقاطي حضور سياقات نرجسية تدل على توجيه الاستثمار نحو الذات، وهشاشة على المستوى العلائقي، كما لاحظنا سياقات الاستناد على الموضوع لتدل على الطابع السندي.
- **صعوبة ارصان الإشكالية الاكتئابية والأوديبية:** ظهر لدى الحالات صعوبة في التموضع أمام مادة الاختبار الاسقاطي، وصعوبة في ارصان الوضعية الاكتئابية والوضعية الأوديبية مما ينبئ عن صعوبات على المستوى التقمصي.

4. المناقشة

ان العمل العيادي الذي قمنا به سمح لنا بالوقوف على أهمية مرحلة المراهقة باعتبارها مرحلة نمو تتميز بالاضطراب وخلل التوازن، لها من الخصائص ما يجعها فترة حرجة في حياة الفرد، انها سيرورة نفسية تضع المراهق تحت ضغط التغيرات النفسية والفيزيولوجية الناتجة عن البلوغ، وتجعله مجبرا على إعادة بناء ذاته، وعرضة لسلوكات المرور الى الفعل، والادمان أحد هذه السلوكات التي قمنا بدراستها مما جعلنا نفهم حياته النفسية بشكل أقرب، وبناء على النتائج المحصل عليها فد اتضح تحقق الفرضيتين التي قمنا ببنائها، فبالنسبة للفرضية الأولى التي تنص على أن **الحياة النفسية للمرهق المدمن تتميز بظهور تقمصات نفسية هشة**، وهو ما ظهر من خلال نتائج اختبار تفهم الموضوع التي بينت انتاج اسقاطي يتسم بظهور دفاعات نفسية صلبة إزاء المادة الاسقاطية، تمحورت في الاغلب حول التجنب والرقابة بعيدا عن أي صراع أو صدى هوامي، مع حضور سياقات ذات نمط هجاسي، وسياقات مرونة بتكرار قليل، وتعبيرات عدوانية من خلال السياقات الأولية، وفشل متفاوت في إرصان إشكاليات الاختبار، يتقدمها فشل في بناء الثلاثية الأوديبية، وصعوبات التموضع أمام الإشكالية الاكتئابية.

كما تحققت ايضا الفرضية الثانية التي تنص على أن **البروفيل النفسي للمراهق المدمن يتميز بوجود صعوبات على المستوى النرجسي والعلائقي**، حيث بينت النتائج المحصل عليها استثمار موجه

نحو الذات من خلال ظهور السياقات النرجسية والاكتئابية مع صعوبات على مستوى الهوية والتقمصات، توضح عدم نضج الشخصية، ووجود صراعات مع الصورة الامومية، حيث تميزت العلاقة الباكرة أم/طفل بالاعتمادية أو الإهمال مما أدى الى اعتبار المادة الإدمانية كموضوع استنادي يعوض الأم، في حين أولئك الذين لم يحظوا بعلاقة امومية جيدة ضمن الطفولة توفر الحماية والحب والسند، فقد استيقظت هذه الحاجة خلال المراهقة، ليجد المراهق المادة الإدمانية كموضوع بديل، فيما أظهرت النتائج علاقات صراعية مع الأب حيث لم يتم ادماج صورته كنموذج للسلطة والقوانين، مع صعوبة في نزع الاستثمار على المواضيع الأولية والتوجه نحو علاقات جديدة خارجية، وعلاقات غير المستقرة مع الخارج.

5. خاتمة

يندرج هذا البحث ضمن التناولات الميتاسيكولوجية التي تهدف إلى الوقوف على جوانب التوظيف النفسي والديناميات الدفاعية لدى الفرد، في ضوء المفاهيم والتفسيرات التي صاغتها المدرسة التحليلية، لذا اتخذنا من ذلك البناء العلمي أساسا لإرساء مشكلة البحث وبناء فرضياته من أجل الوصول في النهاية الى نتائج علمية حول موضوع بحثنا، الذي يتجه نحو فهم إشكالية المراهقة في ضوء التقمصات باعتبارها ركيزة أساسية لبناء الشخصية، وأيضا سلوكات المرور الى الفعل التي يكثر ظهورها خلال هذه المرحلة.

ان المعلومات المحصل عليها من خلال استراتيجية دراسة الحالة قد أوضحت أن سلوك المرور الى الفعل والادمان بصفة خاصة **يبنى على أسس طفولة تتسم بالهشاشة**، وهذا ما تقول به المدرسة التحليلية في إيثيولوجيا الاضطرابات النفسية، فالحالات المدروسة عاشت طفولة صعبة ضمن علاقة أم/طفل غير مستقرة جعلت فيما بعد المراهق في حاجة إلى موضوع اتكالي يستند عليه، يحس بالعجز وقلق فقدان الموضوع في غيابه، حيث أن الانزلاق في مرحلة المرآة جعل الطفل يبقى ضمن علاقة ثنائية مع الأم، في حاجة إلى علاقة اعتمادية خلال حياته، أين اكتسب الطفل صورة مكسورة وغير كاملة عن ذاته كانكسار نرجسي Narcissisme brisé، ليأتي الإدمان على المواد المخدرة كبديل للاعتماد على الأم.

تنطوي إشكالية الإدمان كسلوك مرور الى الفعل عن تاريخ مرضي يشير إلى **صعوبة ارصان العقدة الأوديبية وتجاوزها بطرق سوية**، فالسواء يتوقف على مدى القدرة على تجاوز المرحلة الأوديبية، حيث ظهرت صعوبة القيام بعمل الحداد على الموضوع الأولي، هذا الفشل أعاق التكيف مع الذات ومع العالم الخارجي، فلجأ هؤلاء المراهقون إلى البحث عن موضوع اعتماد خارجي يتمثل في المادة

المخدرة، كمحاولة لطلب السند والمساعدة يمكنه من أن يعيش الشعور باللذة والحنان كموضوع تعويضي.

ومن هنا يظهر لنا بأن **إشكالية الإدمان تنمو وتتطور في وجود نسق أسري يتسم بالاضطراب**، ففي الحالات التي درسناها ظهر خلل في تأدية الأدوار من طرف أفراد الاسرة، أين ظهر لدى البعض تفكك لبنية الأسرة وغياب وسط يضمن الحماية والاهتمام، ولدى الآخرين صراع مع صورة الأب في علاقة صدامية أو غياب نفسي للأب كانت تملؤه الأم ضمن علاقة ثنائية، فصورة الأب لديهم لا تمثل هيئة أنا أعلى يمثل القوانين والقيم والسلطة، بل بقيت خارج النظام العلائقي في تصورات المدمن.

المراهقة عرضة لبروز سلوكات المرور الى الفعل والادمان خاصة تبعًا للعمل الدينامي الذي يميزها ويجعل الأسس التي بناها الفرد في مرحلة الطفولة محل اختبار، وعرضة لانفجار اضطرابات مرور إلى الفعل مثل الإدمان، فالمراهقة تضع الفرد تحت ضغط التغيرات النفسية والفيزيولوجية الناتجة عن البلوغ، والبحث عن رموز جديدة للهوية والاستقلالية، ومرحلة لإعادة بناء التقمصات خارج إطار الأسرة.

تشير إشكالية الإدمان إلى هشاشة على مستوى التقمصات النفسية، إذ تُبنى شخصية الفرد ويتحدد مصيرها من خلال السياق التقمصي، فمرونتها تمنحه قدرة على إرصان الصراعات التي تواجه جهازه النفسي وتسمح له بالتكيف مع الواقع الداخلي والخارجي، في حين أظهرت نتائج الحالات التي تم دراستها، طابع اسنادي واتكالي للعلاقات مع توظيف نفسي يتجه نحو استثمار الذات، وتصورات مستقبلية فقيرة.

تنطوي سلوكات المرور الى الفعل والإشكالية الإدمانية عن استعمال دفاعات نفسية صلبة، فشخصية المدمن غير ناضجة، تتسم بالهشاشة والسلبية ليس لها القدرة على تحمل التوتر والألم، مع صعوبة في التكيف الاجتماعي، مع استعمال دفاعات التجنب في حضور السياقات النرجسية وضد الاكتئابية، ودفاعات الرقابة من خلال السياقات الهجاسية لتشير إلى فقدان الثقة في العالم الخارجي، يجعلنا نفهم مدى الصلابة التي يواجه بها المراهق المدمن الواقع الخارجي.

تكتسي المرافقة قيمة هامة في التعامل مع المراهق في مواجهة اضطرابات المرور الى الفعل، حيث تمثل التقبل والتفهم والمساعدة لتخطي المشاكل التي قد يواجهها في جو أسري مشجع وهادئ، هذه المرافقة تسهم في اعطائه الوقت والحرية من أجل تمكينه من إيجاد الطريق المناسب بنفسه، فالمراهق كائن غير ناضج والعلاج الوحيد لعدم النضج هو الوقت، واللجوء إلى المخدرات هو بحث عن فضاء خاص.

المراجع:

فرويد سيجموند، (1982): **الأنا والهو**، ترجمة محمد عثمان نجاتي، ط4، بيروت، دار الشروق.

فرويد سيجموند، (2006): **علم نفس الجماهير وتحليل الأنا**، ترجمة جورج طرابيشي، بيروت، دار الطليعة.

فكتور سميرنوف، (1985): **التحليل النفسي للولد**، ترجمة: فؤاد شاهين، ط3، بيروت المؤسسة الجامعية للدراسات.

لابلانش، بونتاليس، (2002): **معجم مصطلحات التحليل النفسي**، ترجمة مصطفى حجازي، ط4، بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسات وللنشر والتوزيع.

نيفين زيور، (2000): **من النرجسية إلى مرحلة المرآة: قراءات في التحليل النفسي**، القاهرة، مكتب الأنجلو المصرية.

Balier Claude (1995) : **Psychanalyse des comportements violents**, Paris, PUF.

Braconnier (2004) : **Menasse de dégressivité**, idées de vie, idées de mort, la déprissions en question chez l'adolescent, Paris, Masson.

Cahn Raymond (1998) : **L'adolescent dans la psychanalyse**, Frans, PUF.

Chiland Catherine (1983) : **L'entretien clinique**, Paris, PUF.

Françoise Berlet-Foulard, Catherine Chabert, (2003) : **Nouveau manuel du TAT**, 2 edition, Paris, Dunod.

Frédéric Millaud (2009), **Le passage à l'acte : aspects cliniques et psychodynamiques**, 2 édition, Paris, Masson.

Gutton Philippe (2002) : **Violence et adolescence**, Paris, Presse édition.

Janine Pages-Berthier (1993) : **Psychanalyse et toxicomanie**, Paris, revue toxibase, n 2.

Jeammet Philippe (2002) : **L'adolescence**, Paris, édition solar.

Jeammet Philippe (2006) : **les troubles du conduit alimentaire**, **dans l'acte et dépendance** Paris, Dunod.

Jeammet. Philippe (2001) : **Evolution des problématiques à l'adolescence**, France, groupe liason.

Joseph Sandler (1987) : **Projection, identification, identification projective**, Paris, PUF.

Kestemberg Eveline (1999) : **L'identité et l'identification chez les adolescents**, In psychiatrie de l'enfant, N°2, T.5

Marcelli Daniel, Braconnier Alain (2011) : **Adolescence et psychopathologie**, Paris, Masson.

Marcelli. Daniel (1999) : **Entretien avec l'adolescent et son évaluation**, Encycl. Méd. Chir, Psychiatrie, 37-213-A-10,

Marty Chagnon (2006) : **Identité et identification à l'adolescence**, Psychiatrie/Pédopsychiatrie, EMC, Paris.

Perron Roger (1979) : **Les problèmes de la preuve dans les démarches de la psychologie dite clinique**. Plaidoyer pour l'unité de la psychologie Française, tome 24, n°1.

Pierre G. Coslin (2010) : **Psychologie de l'adolescent**, 3 edition, Paris, Armand Colin.

Reymond-Rivier. B (2002) : **Le développement Social de l'enfant et de l'adolescent**, 9 éditions, Bruxelles, Pierre Mardaga.